

لا قيام لأمة صالحة بغير قانون

بدا رسول الله ، مشاوراته مع رجال الأمة لوضع ، الصحيفة ، او القانون الأسلى ، لأمة الإسلام اثناء بناء المسجد ، اى بعد شهرين او ثلاثة من استقراره فى المدينة . وكانت السرايا الأولى قد خرجت ، فبعد سريتي « سيف البحر » و « رابغ » اللتين ذكرناهما . خرجت سرية « الحزار » بقيادة سعد بن لبي وقاص فى ذى القعدة سنة ١ للهجرة - ٦٢٣ - وهى سرية بعيدة المدى ، وصلت إلى منتصف المسافة بين المدينة ومكة تقريباً ، لأن رسول الله كان يسير فى عمله على خطة دقيقة محكمة ، فقد سيطرت المدينة بسريتي « سيف البحر » و « رابغ » على طريق التجارة المكية بين المدينة والبحر .

وجاءت سرية « الحزار » فبسطت سلطان المدينة على قبائل كبيرة كانت فيه مضى إما فى حلف قريش وإما فى خوف منها ، مثل غفار وجهينة وخزاعة ، فأصبحت هذه القبائل ومنازلها الواسعة غير آمنة بالنسبة لقريش ، وبعد ثلاثة أشهر من « الحزار » سيخرج محمد ﷺ بنفسه بغزوة بواط (بضم الباء) وحالف كل القبائل التى كانت تسكن على طريق التجارة الفرعى الذى يمر بإقليمين من أغنى أقاليم الحجاز وهما العرج (بفتح العين وسكون الراء) والفرع (بضم الفاء والراء) (صفر سنة ٢ للهجرة - أغسطس ٦٢٣ م) .

ومعنى ذلك أن جماعة الإسلام في المدينة كانت تخطو خطوات سريعة واسعة نحو القوة الدينية والاجتماعية والسياسية ، فهل يظل الأنصار بعيدين عن ذلك كله ، وزعمائهم فيما نعلم كانوا رجالاً عظاماً على إخلاص بالغ للإسلام واستعداد عظيم للمشاركة في بناء أمتهم ؟ ..

هل كان من الممكن أن يحدث هذا كله ورجال من أمثال أسعد بن زراره ومعاذ بن جبل ومعاذ بن الحارث وعبد الله بن رواحة وبشير بن سعد وأمّية بن النعمان بن بشير ورافع بن مالك بن العجلان وبشر بن البراء بن معرور ومعاذ بن عمرو بن الجموح وثابت بن الجزع وغيرهم من النقباء وشباب الأنصار ، هل كان من الممكن أن يظل هؤلاء جميعاً بعيدين عن تلك المعركة الكبرى والتطور الشامل مع مانع عنهم من ملكات وقدرات وإخلاص عظيم ؟ .

إن كل واحد من ذكرت وعشرات غيرهم سيكتبون صفحات بعد صفحات من أنصح ماعرف تاريخ البشر ، فكيف يظنون في موقف المشاهدين ورسول الله بين أظهرهم بينى أمة الإسلام ومجدها في دأب وصبر يروعان النفس ؟ .

ولو أراد رسول الله ﷺ لأمرهم بالخروج في المغازي وإنفاق النفس والمال ، ولو أمرهم لبادروا إلى تنفيذ ماطلب ، ولكنه كان كما رأينا يشعر شعوراً عميقاً بأنه بينى أمة الإسلام ، وهو نبيها ورسولها وداع إلى الله بإذنه فيها وهو السراج المنير ، أى هو القدوة والأسوة ، فكل تصرف يتصرفه سيصبح قاعدة وأسوة ، وأمة الإسلام ليست كغيرها من الأمم ، إنها خير أمة أخرجت للناس ، وينبغى أن تظل كذلك .

وهو صلى الله عليه وسلم لم يكن بينى دولة ، لأن الدولة قوة سياسية تجرى الأمور فيها - بحسب مفهوم الجاهلية - أى ما قبل الإسلام - على رئيس يأمر وينهى ومرءوسين يطيعون ، على سادة يسوسون الناس كما يسوس الراعى

غنمه ، أى يتصرف فيها كما يريد ، إنها هو كان يبنى أمة على الإيمان والافتناع والشورى والتراضى والتساوى أو « السوية » كما قال أبو بكر ، وهو أكبر من تلقى درس الأسوة الحسنة من رسول الله ووعاه ، ولا عجب أنه الخليفة الوحيد في تاريخ الإسلام منذ كان الإسلام ، الذى انتخب انتخاباً حراً فى اجتماع على مفتوح حضره من شاء من المسلمين ، وأبدى كل إنسان رأيه فيه حتى استقر الأمر لأبى بكر عن رضا واقتناع وطواعية من كل الناس .



هذا كان رسول الله دقيقاً جداً فى كل خطوة يخطوها ، فقد كان يعلم أن كل كلمة منه ستصبح سنة أى طريقاً يتبعه الناس . كان يتحرى أن يكون تصرفه قائماً على الإسلام نابعاً من القرآن ، يقصد فيه أولاً إلى ضرب الأسوة الحسنة للناس .

ولقد ذكرنا أمثلة من ذلك فى حديثنا الماضى ، ونضيف إلى هذا شاهدين صغيرين . أولهما ماقاله خادمه وصاحبه أنس بن مالك من أن رسول الله ﷺ لم يرفع عليه أو على أحد ممن حوله صوتاً ولا يداً ، بل كان دائماً رقيقاً بالناس متسامحاً - دون تفريط - ملتماً لهم العذر حتى إذا أخطأوا .

ولقد سها بلال بن رباح ذات مرة عن أن يوقظ الرسول ﷺ لصلاة الفجر ، فلما كلمه الرسول فى ذلك فى رفق كان جواب بلال خشناً بعض الشيء ، قال : « أنام عيني الذى أنام عينك » فما رد الرسول عليه بكلمة ، بل أخذها على مأخذ الطيبة وحسن النية ، وابتسم وطلب إليه أن يعجل بالأذان .

والمثل الثاني ماحكته السيدة عائشة من أن رسول الله ﷺ لم يشته في حياته طعاماً ، إنما كان شأنه أن يأكل ما حضر دون أى تكلف ، فإذا كان في البيت لحم أكل اللحم ، وإن لم يكن فيه إلا خبز الشعير والخل والزيت أكل خبز الشعير بالزيت والخل ، وذلك حتى لا يشق على أهله . وهل تظن أن رسول الله لم يشته في حياته طعاماً ؟ بلى ، كان يشتهي ، فهو بشر في كل مايتصل بالبشر ، ولكنه كان يضرب المثل ويقدم الأسوة الحسنة ، وكأنه ﷺ أراد أن يقول للرجال : لا تشقوا على أهل بيتكم ، وكونوا معهم على الحسنى : لا أمر ولا تكليف ولا مشقة ، بل يكون الرجل في بيته القدوة في الطيبة والتسامح والقناعة وحسن الخلق والعشرة .

وتلك هي الأسوة الحسنة .

فهل وعاما المسلمون ؟

وهل يذكر واحد من المسلمين أن رسول الله ﷺ لم يطلق امرأة في حياته قط ، لقد أحل الله الطلاق ، وهذا هو القرآن ولكن الرسول لم يطلق مرة واحدة ، وتلك هي السنة في تطبيق شريعة الإسلام على أحسن ما يكون التطبيق ، فهل أدرك المسلمون ذلك وطبقوه ؟ .

لقد كان رسول الله يعرف أن الطلاق ضرورة يتطلبها صلاح الكون ، ولهذا أحله الله ، وجاء رسول الله عند التطبيق فضرب لنا المثل الأعلى في الصبر على متاعب الزوجية ، ولقد بلغ من غضبه يوماً أن اعتزل كل نسائه - دون طلاق - وأتاه عمر فطلب إليه أن يطلق نساءه كلهن ويتزوج غيرهن ، ولكن الرسول رفض وأمسك عليه نساءه حتى جاء أمر الله بإرجاء بعض نسائه اللاتي كن يغضبهن ، ففعل ولم يطلق منهن واحدة .

ولماذا لم يطلق الرسول ؟ لأنه كان يعرف أن الطلاق هدم للأسرة وإذلال للمرأة وتضييع للأولاد ، ومن ثم فلا ينبغي اللجوء إليه إلا إذا كان استمرار الزوجية على بغض وتنافر هدماً للأسرة وشقاء للزوجين وإفساداً للأولاد ؟ .
فهل تبع المسلمون هذه السنة ؟ .

افتح أى كتاب من كتب الفقه وتعجب من التيسيرات التى أباحها الفقهاء فى موضوع الطلاق حتى أصبح الزواج فى نظرهم متعة للرجل وحده ، فإذا لم يجد المتعة طلق وأذل الزوجة ، وشرذ الأولاد ، ولا بأس عليه فى ذلك مادام يؤدى نفقة الزوجة - وما أقلها وما أقصر مدتها - ومؤخر الصداق . تأمل معى ذلك تفهم لماذا لم تظل أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس ، ولو أنها اتبعت أسوة الرسول فعلاً لكانت إلى أبد الدهر خير أمة أخرجت للناس .



لم تعد بيعة العقبة الثانية إذن كافية لتنظيم أمور الأمة التى كانت تتطور علواً سريعاً ، وتسير خطوة خطوة نحو الغاية التى رسمها الله سبحانه لرسوله ، ومضى رسوله يسعى لتحقيقها على أحسن ما يكون التحقيق .

كان لابد من أساس تشريعى جديد يقوم على الشورى والتراضى والاعتناع ، ولا يقوم قط على الأمر والتسلط والتحكم ، فهذه أمة الإسلام وأمة الإنسان الحر الذى يشعر أنه عضو فى جماعة حرة خيرة يقوم أمرها على التراضى والتشاور والاعتناع ، وهدفها خدمة الجماعة كلها والتساوى فى الحقوق والواجبات بين أفرادها جميعاً .

لهذا . . فعندما أحس الرسول أن أصحابه من أهل المدينة يريدون أن يشاركوا في ذلك العمل العظيم الذي بدأه وسار فيه ، شرع في التشاور معهم ومع بقية أصحابه في وضع أساس قانوني أو قل شرعي أو تشريعي لبناء الأمة الجديدة .



ثم إن النجاح الباهر الذي حققته أمة الإسلام في الأمد القصير أثار الحسد والخوف والحقد في قلوب الكثيرين من أهل المدينة الذين لم يتنبهوا أول الأمر إلى أهمية أمة الإسلام التي قامت في بلدهم . . والتغيير البعيد المدى الذي كان لابد أن يحدثه قيام هذه الأمة في تكوين مجتمع المدينة ونظامه ومسئوليات أهله .

فقد كان في المدينة قبل مجيء الرسول وأصحابه ناس لهم زعامة ورياسة ومكانة . وكانوا يحسبون أن مجيء محمد وأصحابه لن يؤثر في هذه الرياسة وتلك المكانة ، ومنهم من أسلم بشفتيه دون قلبه حاسباً أن الإسلام كلمة تقال وشرف يناله الإنسان دون أن يتحمل في سبيله مشقة .

وبعضهم ظل على كفره أو على دينه السابق ظناً منه أن هذه جماعة صغيرة تلتف حول نبيها وتقوم بعباداتها وتستظل بصغيرة مقتصرة على أصحابها أبداً ، فإذا بهم يفاجأون أن هذه الدعوة ليست كلمة تقال أو رتبة جاه تنال دون مقابل من تعب وجهد وتضحية ، إنما هي دعوة عامة لتغيير نظام المدينة كلها أولاً ثم الحجاز كله بعد ذلك ، وهامى ذى أعداد المسلمين تتزايد يوماً بعد يوم ، ويظهر من شباب أهل المدينة ورجالها الذين كانوا من قبل أغماراً . . رجال جدد صاغهم الإسلام صياغة جديدة ، فأصبحوا مجاهدين وقادة وأصحاب رأي ، وهم ملتفون حول نبيهم يتلقون منه آيات القرآن ويعملون بها ويتبعون سنته المثلى .

فأخذت الغيرة تأكل قلوبهم وشملهم الخوف ، ومنهم من وجد السلامة - أو أحس أنه وجدها - في التظاهر بالإسلام والتقرب من رسول الله . ومنهم من استمسك - مع الإسلام أو بدونه - بأهداب زعامته المولية . فظهرت معارضة قوية وخطرة بعضها معلن وبعضها مستور . وبدأ هؤلاء جميعاً يهاجمون الأمة ويكيلون لها ولرسلها ، فكان لابد من حماية الأمة بتحديد معالمها وإظهار شخصيتها وبيان من منها ومن ليس منها ، ومن يحالفها أو يعاهدها أو يعاندها ومن يعادها . وكان لابد كذلك من بيان حقوق رجال الأمة - أفراداً وجماعات - وواجباتهم .

بعبارة واحدة نستعيرها من مفهومات عصرنا : كان لابد من إعلان قيام الأمة ووضع شريعتها أو دستورها وتحديد الالتزامات المعنوية والمادية التي تتطلبها الدخول في الأمة حتى يدخل فيها من يريد الدخول على بينة . وحتى يعلم أنه بدخوله هذا يدخل في أمة وعهد وعقد ، بل يدخل في عصر جديد من حياته لا علاقة له بما مضى من عمره .

ولست أقول هذا على سبيل الإنشاء أو الاسترسال مع التأمل ، فهذا الذي نكتبه إنما هو تاريخ للإسلام جديد يقوم على منهج في البحث والاستقراء جديد . وقد سبق أن رأينا أن أمة الإسلام قد جرفتها الحوادث من منتصف العصر الراشدي وحملت في تيار جاهلي لا يتفق مع طبيعة الإسلام وبناء أمته وغايات هذه الأمة ، فدخلنا في عصور « الخلافة - الملك » التي حولت أمة الإسلام إلى دولة دنيوية من طراز الدول السابقة على الإسلام ، أي من طراز الدول التي جاء الإسلام لكي يزيلها ويحرر الناس من ربقتها ، ويدخلها في عصر الأمة الحرة المؤمنة التي تقوم على الإنسان الحر الكريم المحترم الذي يقوم بالتزاماته نحو الأمة ، لأنه إنسان مؤمن حر كريم محترم لا رعية للملك مستد أو طاغية غاشم .

ومن غريب الأمر أن الفكر السياسي الإسلامي كله انحصر في موضوع « الخلافة الملكية » هذا . من يستحقها ومن لا يستحقها . . وكيف يستطيع « الخليفة - الملك » أن يكون رءوفاً رحيماً برعيته ، وما الذي يصلح السلطان وما الذي يفسده وما إلى هذا من المباحث الفرعية البعيدة جداً عن طبيعة أمة الإسلام وغاياتها .

ونحن لا نريد بهذا أن نقول : إن الخلافة ليست من الإسلام ، أو أن الملك يتعارض مع الإسلام ، فإن الخلافة أو الملك أو السلطنة وما إليها صور شكلية لممارسة تنظيم أمور الأمة ، فالإسلام لا ينكر الخلافة ولا ينكر الملك أو الإمارة ، فهذه كلها أشكال تنظيمية إذا ارتضتها الأمة واختارتها لم يكن بها بأس ، ولكنها تظل كما قلت تنظيمات شكلية . . للأمة أن تصوغها كيف تشاء .

أما المهم فهو الأمة الحرة الكريمة المؤمنة المتحدة في المبادئ والغايات الملتفة حول القرآن ، المؤمنة بالإسلام إيماناً صحيحاً ، ولا أقول هنا « الملتفة حول راية القرآن » أو السائرة تحت ظلال القرآن ، فهذه كلها تعبيرات بلاغية ووهمية ، لأن الناس قد يسيرون وراء راية لا يفهمون من أمرها شيئاً ، وقد يستظلون بالقرآن دون أن يفهموه أو يعملوا به ، إذ أن المهم والأساس هنا هو أن نكون نحن القرآن نفسه ، أن نكون نحن السنة بنفسها وروحها .

أما أن يكون الإسلام مجرد راية نرفعها أو ظلال نسير تحتها فكلام لا معنى له ، بل هو تضليل واضح ، فالقرآن ليس راية والسنة ليست ظلالاً . إنها القرآن والسنة حياة ينبغى أن نعيشها في عمق كما عاشها الرسول ﷺ وصحبه ، ولأنهم عاشوها في عمق فقد استطاعوا أن ينشئوا للإنسانية كلها عصراً جديداً دخلت فيه أمة بعد أمة .

وكان من الممكن أن يظل هذا العصر الجديد جديداً كل يوم لو أننا عشنا القرآن والسنة حقاً ولم نجعل القرآن راية والسنة ظلالاً

ألا تذكر قول السيدة عائشة رضی الله عنها أن رسول الله كان خلقه القرآن ؟ فهذا هو الذي أريد أن أقوله .

ومحاول بعض قدامى المؤرخين أن يصوروا لنا أسباب نفاق المنافقين أو كراهة بعض أعداء الإسلام للإسلام في أول عهده بالمدينة ، بالقول - مثلاً - بأن أهل المدينة كانوا ينظمون الخرز ليصنعوا منه تاجاً يتوجون به عبد الله بن أمي بن سلول ، فلما جاء محمد إلى المدينة بالإسلام وقف ذلك كله ، فحقد عبد الله بن أمي بن سلول على الإسلام والرسول والمسلمين ، وهذا كلام ساذج .

وعبد الله بن أمي بن سلول كان قبل الإسلام أقل من ذلك بكثير ، ثم : منذ متى كانت العرب في الحجاز تتوج على نفسها رجلاً ؟ لقد فكر في ذلك مرة عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ، وكان قد تنصر ، وداخل رجال الروم في أن يكون في مكة بمنزلة أمراء الغساسنة ، فما كاد يعود إلى مكة ويسمع الناس بدعوته حتى قام عليه أهل قبيلته نفسها برياسة ابن عمه الأسود بن المطلب ، فهرب عثمان إلى الشام ، وحاول إيذاء القرشيين ، فما زالوا به حتى سجنه رجال دولة الروم ومات في السجن .

والحقيقة أن نجاح دعوة الإسلام ، وتوفيق محمد العظيم في بناء الأمة وقيادتها أثار الغيرة والحسد في قلوب من كانت لهم رياسة ومكانة يدلون بها على الناس ، فلما أزالها الإسلام حقدوا عليه وسعوا في الإضرار به وجماعته ، وكان هذا من العوامل التي جعلت محمد ﷺ يجتهد في التشاور مع أهل أمته في وضع قانونها لحمايتها وإظهار شخصيتها والنص على أن هذه هي أمة الإنسان المؤمن الحر الكريم الذي يعرف ماله وماعليه ، فيأخذ ماله ولا زيادة ، ويؤدى ماعليه ، وإذا أراد الزيادة زاد ، وكل شىء بثوابه وحسابه في شرعة الإسلام .

وكان أشد الناس خوفاً من نجاح أمة الإسلام هم يهود المدينة ، فقد كانوا قبل مجيء الرسول يزهون على أهل المدينة بأنهم أهل كتاب ، وأنهم أمة الله ،

وأن الله ناصرهم بدينهم لأنهم أمته ، وأن النصر سيأتيهم كما هو ثابت في شرعتهم على يد نبي يبعث كما زعموا من أصلابهم ومن أسباطهم تتحقق على يديه البشرى بنصر أمة الله على من عداها .

وكانوا إلى جانب ذلك يكتبون ويقرأون ويمارسون أعمالاً رئيسية مثل الزراعة والصناعة ، وجماعة منهم بالذات هم بنو قينقاع احتكروا الحدادة والصبغة ، وأهم عمل في الحدادة هو صناعة السلاح من سيوف ودروع ، وهذا أساس عظيم من أسس القوة . ولهذا فإن اسمهم قين (وهو الحداد) والقيون : أى أهل الحدادة .

وأمر هؤلاء اليهود عجب . فنحن نقرأ الكثير عن تمسكهم بعقيدتهم واعتزازهم بها ، ومع ذلك فلا نجدهم قد أقاموا لأنفسهم في المدينة بيعة أى معبداً ، ولا اتخذوا كاهناً ولا كان فيهم رئيس ديني مشهود له بالعلم والجاه في قومه .

والذى نعلمه أن كل جماعة يهودية في الدنيا أيا كان حجمها لا بد لها من بيعة فيها تابوت أى خزانة كتب العقيدة وذخائر البيعة أو الكنيس ، ولا بد لها من ربن أوربان أوربي (بفتح الراء وكسرها) وهو الكاهن .

ولكن يهود المدينة لم يكن لديهم من ذلك كله شيء . إنما هم يوصفون بأنهم يهود وأهل كتاب فحسب . وعندما استولى المسلمون على ديارهم وأراضيتهم لم يجدوا فيها بيعة ولا مصلى ولا كتباً دينية . وقد أتانا السمهودى ببيان شاف عن ديارهم وأطامهم ولكنه لم يذكر لهم كنيساً واحداً ، وأتانا البلاذرى في أنساب الأشراف ببيان « أسماء عظماء يهود » فلا نجد فيهم كاهناً ، إنما يوصف بعض رجالهم بأنهم كانوا من أحبارهم .

وهود المدينة فيما يقال كانوا أول الأمر أصحاب السهل الذى نشأت فيه المدينة ، ومن كلام السمهودى نفهم أنه عندما جاء الإسلام كان بنو النضير

وبنو قريظة وبنو قينقاع يملكون جنوب شرقي السهل كله ، وكانت أراضيهم
أخصب أراضي المدينة وأوفرها زروعاً ، وكانوا يملكون عند الهجرة ٥٩ أطماً
(بضم الهمزة والطاء وهو الحصن) في حين أن بقية قبائل المدينة ما بين أوس وخزرج
كانوا لا يملكون إلا ٣٠ أطماً . وربما دلت كثرة حصونهم على أنهم كانوا أضعف
من الأوس والخزرج عسكرياً ، ولهذا احتاجوا إلى الأطام الكثيرة .

وعندما نزل الأوس والخزرج سهل المدينة نزلوا في حلف اليهود وجوارهم ،
لأن اليهود كانوا أول من عمر السهل . وكانت جماعاتهم الثلاث الكبرى يهودية
أصلاً ، هاجرت إلى الحجاز من فلسطين . ولكن بطونا من القبائل العربية
أخذت اليهودية ، ويذكر السمهودي من هؤلاء بني مرثد وبني معاوية وبني
جذماء ، وبني نجيشة وبني زعورا وبني ثعلبة .

ولكن هذه البطون لم تكن أوسية أو خزرجية من ناحية الأصل ، فبنو مرثد
يتسبون إلى بلي بن إلخاف بن قضاة ، وبنو معاوية كانوا بطناً من سليم بن
منصور ، أما بنو جذماء وبنو النجيش فكانوا من مهاجرة عرب اليمن ،
وبنو زعورا وبنو ثعلبة كانوا بطنين من غسان من عرب الشام .

وكانت هناك بطون أخرى من اليهود داخله في حلف المجموعات اليهودية
الثلاث الكبرى مثل بني هلال . وهم عرب حلفاء لبني قريظة . وعندما نزل
الأوس والخزرج السهل كانوا ضعافاً فدخلوا في حلف اليهود ، ثم تكاثروا
واستقوا مع الزمن .

وكان بنو ثعلبة أول الأمر أقوى قبائل اليهود ، ومنهم كان الفطيون الذي
يقال إنه أقر الأوس والخزرج في سهل المدينة على أن يبارس معهم تقليداً عرفه
يهود الشام وهو تقليد افتضاض كل عروس ، فلما استقوى العرب رفضوا ذلك
وتزعمهم فيه مالك بن العجلان من بني عوف بن الخزرج ، وهو الذي حارب

بنى ثعلبة وقتل الفطيون زعيمهم ، وكانت تلك بداية استقلال الأوس والخزرج عن اليهود ثم سيادتهم على السهل ودخول اليهود في حلفهم ، وأخذت بعض بطون اليهود تدخل في حلف القبائل العربية وترتد عن اليهودية .

وأهم هؤلاء بنو زعوراء الذين دخلوا في بنى عبد الأشهل ، وأصبحوا من زعمائهم ، ومن بينهم نبغ سماك بن عتيك بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل وهو الذى قاد الأوس وكسب لهم النصر على الخزرج فى معركة بعث ، وابنه هو الفارس حضير بن سماك الذى يلقب لفروسيته بحضير الكتائب ، وابنه الصحابى الفارس المعروف أسيد بن الحضير الذى يصفه ابن حزم فى الجمهرة بأنه « بدرى عقبى نقيب » وتلك أعلى مراتب المسلمين جميعاً : أن يكون ممن شهدوا بدرأ والعقبة الثانية وكان واحداً من الاثنى عشر نقيباً .

ومهما بحثنا فإننا لانتبين أن اليهود كانوا قوة دينية كبيرة فى المدينة عندما بدأ محمد بينى الأمة ، ولكنهم كانوا قوة عسكرية ، فبنو قينقاع مثلاً كانوا حلفاء عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين وكان قبل الإسلام سيد بنى سالم الحبل . وكانت قوة بنى قينقاع تقدر بسبعمائة محارب منهم ثلاثمائة دارع .

ولكن أولئك اليهود أخذوا يتحولون إلى قوة معارضة دينية خطيرة عندما قامت أمة الإسلام ، كأنها أشعرهم قيام الإسلام بأنهم يهود فتصدوا له فى عناد شديد ، ولم تكن العداوة راجعة إلى الدين ، فقد رأينا أنهم من الناحية الدينية لم يكونوا بأهل عقيدة متمسكين ، وإلا فأين يبيعهم وأجبارهم وكتبهم ؟ ولكن العداوة كانت عصبية ، أى أنه عز عليهم أن يجيء النبى البشير من العرب فأنكروا إلا نفراً قليلاً ممن عصمهم الله من أمثال الحصين بن سلام (بدون تشديد اللام) من بنى قينقاع ، وقد أسلم وأصبح اسمه عبد الله بن سلام وحسن إسلامه ، وهناك يهود أسلموا نفاقاً وكانوا شرا على الإسلام مثل مالك بن أبى قوقل الذى

تعوذ بالإسلام (وكان ينقل أخبار النبي ﷺ إلى يهود) كما يقول البلازرى ،
ورافع بن حريملة الذى يعد من كبار المنافقين .

وقد أخذت عداوة اليهود للإسلام وأهله تزداد بزيادة قوة الأمة . . ويذكر
الواقدى أن اليهود عاهدوا محمداً ﷺ على ألا يظاهروا عليه عدواً ، ويذهب ابن
إسحاق إلى أن بنى قريظة عاهدوا محمداً على أن يدعوه وشأنه دون أن يدخلوا
الإسلام .

وكان محمد لا يشك في أنهم سيكونون أول الناس تأييداً له ، لأن القرآن
يؤكد له أنه جاء مصداقاً لما في كتبهم ، وهذا حق . . فلما رأى موقفهم هذا تركهم
وشأنهم مؤمناً بأنهم سيتغلبون على عصبيتهم وسيترفون بالحق ويفيئون إلى أمر
الله ولكنهم ازدادوا عناداً واستقروا بالمنافقين فأصبحوا خطراً على الأمة .

لهذا كان لابد من تحصين الأمة بإظهار شخصيتها وإعلان قيامها ووضع
قانونها حتى يعرف المسلمون من هم وأين هم وماذا لهم وماذا عليهم ، ويشعروا
بقوتهم ويسيروا في طريقهم على هدى من أمرهم أمة واحدة متآخية متحابية مؤمنة
حرة . . رسالتها إدخال الناس جميعاً في الإسلام .



تلك هى الظروف التى جعلت محمداً يشاور أصحابه لوضع دستور
الجماعة ، وقد رأى رسول الله أن يكون الدستور مكتوباً حتى يلتزم به أصحابه ،
وسنعرضه فقرة فقرة . . ونناقشه ، وسنرى من دلائل أصالته ما يدحض حجة أى
مكابرة ، وإذا قلنا إن للمحدثين القدامى عذرهم لأن نص الصحيفة لم يصل
إليهم كاملاً عن طريق السند الصحيح الذى يشترطونه ، فما عذر المؤرخ
المحدث وهو يجد نص الصحيفة كاملاً بين يديه ، ويرى دلائل أصالته من كل

ملمة فيه ؟ وما عذره بعد أن بيناه الظروف التي أحاطت بأمة الإسلام الناشئة ،
وهي ظروف عسيرة استعدت جمع الأمة في وحدة واحدة ذات نظام واحد لتواجه
خصومها مواجهة فعالة وهي في عنفوان نهوضها ؟

ولا أجد ما أؤيد به ما أريد قوله إلا أن أورد فيما يلي بضع آيات من سورة
البقرة نزلت قبيل كتابة الصحيفة وأثناء كتابتها ، وهي تؤيد ما قلناه وليس بعد
القرآن عندنا دليل ، وسنرى أن الصحيفة كتبت على مراحل نعتقد نحن أنها
أربع ، ويرى بعض الباحثين أنها أكثر من ذلك ، وهذه التقسيمات كلها - أيا
كان عددها - تزيد من قيمة الصحيفة وتؤيد أصالتها ، فإنها - بصفتها دستور
الأمة - كانت قانوناً مفتوحاً ، كلما تغيرت واستدعى الأمر زيادة مواد جديدة
تساور المسلمون وكتبوا ما اتفقوا عليه واعتبروه جزءاً من الصحيفة واستمع إلى
قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ
بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ . (البقرة : الآيتان ٦ - ٩) .

وهذه الآيات ترينا كيف أنه كان من الضروري إظهار وحدة الأمة وإعلان
شخصيتها حتى يتحدد الموقف بينها وبين أعدائها الذين يندسون بين صفوفهم
و « يخادعون الله والذين آمنوا » .

ثم اقرأ الآيات التالية من سورة البقرة أيضاً لكي ترى كيف كان اليهود
يقولون إنهم ينتظرون البشير ، فلما جاء أنكروه : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ
نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَحَاوِلُهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ .
صُمُّ بَكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ . (البقرة : الآيتان ١٧ - ١٨) .

ثم تأمل هذه الآيات التي تخاطب المؤمنين الصادقين :

﴿ وَيَبْشِرُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَبْغُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَالِسُونَ . كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ آمَوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . (البقرة : الآيات ٢٥-٢٨) .

فالصحيفة كتبت للذين أمر الله رسوله أن يبشرهم أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار . الذين يعلمون أنه الحق من ربهم ، وقد كتبت كذلك لتحمي الأمة من الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل .

وهي من هذه الناحية - تاريخياً - الحد الفاصل بين من آمن ومن لم يؤمن ، بين من يصلح ومن يفسد ، بين أمة الله وأعداء أمة الله .

* * *